إضاءات نقدية (فصلية علمية)
السنة التاسعة ـ العدد الرابع والثلاثون ـ صيف ١٣٩٨ش/ حزيران ٢٠١٩م
صص ٦٢ ـ ٣٧

فاعلية الرموز الطبيعية فى شعر الأطفال لسليمان العيسى (ديوان "أراجيح تغنى للأطفال" نموذجًا)

زهرا فريد*

ملخص

اهتم المسلمون قديما وحديثا بالسيرة النبوية العطرة وبكل ما يتصل بحياة الرسول يعتبر الرمز بوصفه أرقى أنواع التخيل الذى يربط مخيلة الفنان ولاشعور الأديب بالحقائق الكونية؛ من أكثر الآليات الفنية استعمالاً فى النصوص الأدبية بأنواعها المختلفة. فى أدب الأطفال وبرغم سطحية التفكير لدى المخاطب وعدم إدراكه للدلالات السيميائية الموجودة فى النص، فالحاجة ملحة لتوظيف الرموز ذات الدلالات المعروفة إلى جانب خلق رموز ذات دلالات تعبيرية جديدة بهدف نقل المفاهيم الانتزاعية إلى مخيلة الأطفال، وإثراء مخيلتهم البدائية وتطويرها فضلاً عن توسيع أفق نظرتهم للحياة. تعتبر الرموز الطبيعية من أكثر الرموز استعمالاً فى أدب الأطفال، حيث يقوم الشاعر والكاتب بخلق رموز عبر الاستعانة بعناصر الطبيعة كالجبل والوديان والبحر و...، فى محاولة منه لتجسيد الأفكار والمفاهيم المجردة ونقلها إلى مخيلة الأطفال لتصبح مفاهيما حسية ويكون الطفل قادراً على إدراكها. تسعى هذه الدراسة عبر الاعتماد على المنهج الوصفى والتحليلى لتبيين الظواهر الطبيعية التى وردت فى شعر الشاعر السورى سليمان العيسى وأخذت دلالات رمزية، وصولاً لمعرفة أهداف الشاعر فيما يتعلق باستخدام الرموز. ومن أهم النتائج التى توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة، هى أن استخدام الشاعر للرموز الطبيعية الشخصية وغيرها يدخل فى إطار طموحاته الخاصة وهى الأمل بالمستقبل وخلق روح المثابرة لدى الأطفال واليافعين بغية الوصول إلى الطموحات القومية منها المقاومة وانتصار الأطفال الفلسطينيين. ثم إن الشاعر يستعين باسلوب الانزياح لوصف بعض الرموز المعروفة لتحبيبها فى أذهان الأطفال وتغيير رؤية الأطفال نحوها.

الكلمات الدليلية: شعر الأطفال، الرمز، رموز الطبيعة، الهوية القومية، سليمان العيسى، أراجيح تغنى للأطفال.

---

*. أستاذة مساعدة فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الزهرا، طهران، إيران.
z.farid@alzahra.ac.ir

تاريخ الاستلام: ١٣٩٧/١٢/١٢ش تاريخ القبول: ١٣٩٨/٥/١ش

المقدمة

لاشک أن الطفولة مرحلة من أهم المراحل المؤثرة فی حياة الإنسان وكذلک مجتمعه الـذی يعيش فيـه، لذلک فان كل عمل تربوی صحيح سـوف يؤثر على معظم جوانب حياة الإنسـان فی مسـتقبله وعلى مجتمعه أيضاً، وفی المقابل تؤثر كافة الأساليب غير السـوية والخاطئة فی تربية الطفل على حياته وبالتالی لهذه الممارسـات الخاطئة آثار سـلبية على مصالح الأطفال وتعرض مسـتقبلهم للخطر «فالطفـل ثروة الحاضر وعماد المستقبل تعتمد عليه الأمم فی تشييد حضارتها لذلک تعمل على إعداده وتربيته للقيام بأداء المسـؤوليات التی يلقيها المجتمع على عاتقه.» (بن عمر، ٢٠١٤م: مقدمة البحث). وانطلاقة من أهمية مرحلة الطفولة ودورها فی صناعة شخصية الإنسان ومستقبله، اهتم العلماء والمفكرون اهتماماً كبيراً بهذه المرحلة وكتبوا بحوثا ودراسـات خاصة وضّحوا فيها الطرق السليمة لتربية الأطفال وتعليمهم. وإلى جانب العلماء والمفكرين، تفرغ عدد مـن الأدباء لتعليم الأطفال وخلقوا أدبا غايته نمو الطفل وتطوره المعرفی بالإضافة إلى تنمية مواهبه وقدراته الأدبية.

إن سليمان العيسى[١] شاعر عربی سوری جلّ شعره موجّه للأطفال فهو يعد رائد شعر الأطفال فی العصر الحديث. (قرآنيا، ٢٠٠٣م: ٦٥) إنه جعل شـعره أداة لتنمية الأطفال واكسـابهم بعض العادات الصحيحة والارتقاء بفكرهم، كما جعله أداة تعبر عن مطالب الأطفـال وطموحاتهـم، ذلک لأن «القضيـة القومية والوحدة العربيـة والبناء الوطنی والثورة هی المحاور الأساسـية فی هم الشـاعر وهی تكرر لديه وتتجسد عبر لوحات عديدة وأساليب متنوعة: البعث والعروبة والوحدة وفلسطين والفداء العربی والارتباط بالأرض.» (عزام، 2008م: http://www.startimes.com/?t=12569686)

١. من مواليد قرية نعيرية بمحافظة اسـكندرون فی سوريا كان من أعضاء حزب البعث بسوريا ومن أصدقاء زكی الأرسـوزی. إنه قضی حقبة من عمره فی التدريس فی المدارس الابتدائية. وبدأ بإنشاد الشـعر للأطفال منذ نكسـة حزيران عام ١٩٧١م . له عدة دواوين ومسرحيات وقصص. من أعماله الشـعرية يمكن الإشارة إلى: ديوان "غنّوا يا أطفال"، "الشعراء يقدّمون أنفسهم للأطفال"، "أحكی لكم طفولتی يا صغار"، "ديوان الأطفال"، "الأعمال الأخيرة"، "نشـيد الحجارة" ودواوين أخرى. (عبشی، ٢٠٠٥م: ٢٧١) و فی عام ٢٠٠٠م حصل على جائزة الإبداع الشعری لمؤسسة البابطين. توفی سليمان العيسی فی مدينة دمشق السورية فی التاسع من أغسطس ٢٠١٣م عن عمر يناهز ٩٢ سنة.

فكذلک توظيف الرمز فى أشـعار العيسى جاء بهدف التعبير عن الظواهر والحقائق الاجتماعية والسياسـية السائدة فى المجتمعات العربية وتخلف الأمة العربية عن مجدها القديم. إن الشـاعر ومن خلال أناشـيده يسعى لخلق بيئة وظروف تربوية مناسبة تؤهل الأطفـال للتعامل الصحيح مع قضايـا الواقع، وفى نفس الوقـت تهيئهم لتحقيق آمال الشعوب العربية وتطلعاتهم.

يقول العيسى: لماذا لا نُنشد للأطفال؟ أى شيء أهم وأغلى من الأطفال؟ هل استغنى كتابنا وشـعراؤنا عن الكتابة والإنشـاد للأطفال؟ لماذا لا أنشـد للأطفال وقلبى مليئ من الميول نحو الكتابة لهم؟ إن الأطفال كالشـرايين التى يبحث عنها العالم العربى لكى يستعيد من خلالها جريان دمه الذى توقف منذ ألف عام. (العيسى، ١٩٩٩م: ٢٣)

إن الشـاعر ومن أجل التعبير عن أفكاره اسـتعان بالعديد من الرموز الطبيعية إلى جانب توظيفه المكثف للرموز التاريخية فى شـعره. وعليه جاءت هذه الدراسـة بهدف تبيـين فاعلية الرموز الطبيعية (الحيوانات والأعشـاب والأزهار والفصول والكائنات غير الحية) فى شعر الأطفال لسليمان العيسى.

أهمية البحث

من العوامل الأساسـية التى دفعتنا إلى تحليل الرمـوز، خاصة الرموز الطبيعية فى أدب الأطفال أولا، قلة الدراسـات فى حقل أدب الأطفال إذا قيست إلى أدب الكبار خاصة الدراسات التى تعنى بموضوع الرموز وفاعليتها فى هذا النوع من الأدب. وثانيا أن القراءة الأولية لديوان سـليمان العيسى باعتباره شـاعر القومية العربية ورائد شعر الأطفال ظهر لنا أنه لم يكتف فى شعره بوصف الطبيعة وظواهرها فحسب بل يجاوزه إلى اسـتخدام الطبيعة كرمز لبيان أفكاره وأمنياته القومية. كذلک تم اختيار دراسة الرموز الطبيعة لكشف أهدافه من توظيفها فى أشعاره.

وكذلک دليل اختيار كتاب "أراجيح تغنى للأطفال" من بين مؤلفات الشاعر سليمان العيسـى الشعرية كعينة للدراسة جاء من عدة منطلقات، أولها أن هذا الكتاب من آخر الكتب التى ألّفها الشاعر، لذا يمكننا أن نكشف من خلاله نظرة الشاعر للطفولة فى نهاية

عمره. والثانى أن هذا الكتاب يحتوى على صور فنية جذابة تنقل للقارئ رؤية الشاعر للقضايا القومية والوطنية بلغة سهلة مرنة وموضوعية ومؤثرة.

أسئلة البحث

هذا المقال يسعى الى الإجابة على السؤالين التاليين من خلال دراسة أشعار سليمان العيسى:

١. ما هى رموز الطبيعة فى شعر سليمان العيسى؟
٢. ما هى أهداف العيسى من توظيف تلك الرموز فى أشعاره؟

فرضيات البحث

بعد قراءتنا الأولية لديوان سليمان العيسى -شاعر الأطفال و القومية العربية- بدا لنا أنه تجاوز وصف الطبيعة إلى استخدامها كوسيلة لبيان آلامه وطموحاته تجاه مستقبل الوطن العربى، فالحيوانات والأعشاب والكائنات الطبيعية الحية وغيرها أدات يتمسک بها الشاعر لبيان آرائه. كذلک ظننا أنه أكثر من استخدام الحيوانات بالنسبة للظواهر الطبيعية الأخرى وإن الشاعر قد استخدم جميع الألوان والفصول تعبيرا عن أفكاره. وكذلک أن الشاعر بسبب ميوله القومية اهتم بالقضية الفلسطينية خاصة الأطفال الفلسطينيين من خلال الرموز الطبيعية.

منهج البحث

هذه الدراسة قد اعتمدت المنهج الوصفى- التحليلى فعرضنا أولا مدخلا نظريا للتعرف على أدب الأطفال ودوره فى التربية ومفهوم الرمز ومكانته فى الأدب خاصة أدب الأطفال ومن بعد ذلک عمدنا إلى استخراج وتحديد الرموز الطبيعية وأنواعها فى شعر سليمان العيسى على أساس المنهج الوصفى ثم اعتمدنا على مدخل تطبيقى فتمت دراسة دلالات الرموز وتحليلها معتمدة على المنهج التحليلى وكذلک درسنا كيف اتّخذ العيسى الرموز الطبيعية وسيلة لتربية الأولاد، تربية وطنية وقومية.

خلفية البحث

إن الدراسات المرتبطة بأشعار سليمان العيسى (للكبار والأطفال) قليلة ومع ذلک يوجد عدد قليل من الرسائل والبحوث التى خصصت لدراسة شعر العيسى ومؤلفاته، نشير إلى بعضها فيما يلى:

رسالة تحت عنوان «شرح و بررسى اشعار سليمان العيسى با تكيه بر مضمون و موسيقى» لـ"رسول دشتيان". نوقشت الرسالة فى القسم العربى لجامعة طهران عام ٢٠١٢ م. وتطرق الباحث فى دراسته إلى علاقة الموسيقى الخارجى (الأوزان والقوافى) والموسيقى الداخلى (التكرار والجناس و...) بالمضمون الشعرى فى ديوان الأطفال لسليمان العيسى.

رسالة أخرى بعنوان «بررسى وتحليل صورخيال در اشعار كودكانه محمد كيانوش وسليمان العيسى» لـ"زهره سرخى زاده"، نوقشت فى جامعة بيام نور عام ١٣٩٥ش. قامت الكاتبة فيها بدراسة وتحليل أنواع الصور البلاغية كالتشبيه والاستعارة فى أشعار سليمان العيسى ومحمد كيانوش شاعر ايرانى ولكنه ما أشار إلى بحث الرموز فى شعره.

وكتب الباحث: "مسعود باوان بورى"، بحثا تحت عنوان: «نگاهى به ادبيات كودک سرزمينهاى عربى مطالعه مورد پژوهانه: سليمان العيسى»، تطرق فيه إلى ميزات أشعار العيسى وموضوعاته فى ديوان الأطفال. والبحث نُشر فى مؤتمر الاتجاهات الوظيفية فى العلوم الإنسانية والإدارة، عام ٢٠١٣م.

وقام "أبوالفضل رضايى" بدراسة الموضوعات التى ذكرها سليمان العيسى فى ديوان الأطفال، وذلک فى مقالة تحت عنوان «أهمية الدواوين الشعرية للأطفال، سليمان العيسى نموذجا». وتحت عنوان «مضامين طبيعت گرايانه در ديوان الأطفال سليمان عيسى»، قام "فؤاد عبدالله زاده" وآخرون، بدراسة وصفية مختصرة لعناصر الطبيعة فى ديوان الأطفال للشاعر نفسه. والمقالة هذه طبعت فى الملتقى الدولى للدراسات الأدبية واللسانية والعلاقات الثقافية فى عام ٢٠١٤م. ولكنها ما تناولت المعانى الرمزية لمظاهر الطبيعة وعلاقتها بفكر الشاعر وطموحاته.

وكذلک مقالة أخرى تحت عنوان «بررسى وتحليل أشعار تعليمى سليمان العيسى

در حـوزه ادبيات كودک» بقلم "مهين حاجى زاده" وآخرون نشـر فى مجلة "نقد ادب عربـى" عام ١٣٩٤ش، قد تناولت الكاتبة فيها الموضوعات والآليات المسـتخدمة من قبل سليمان العيسى فى تربية الأطفال وترشيدهم وتوعيتهم.

وهناک مقالة عنوانها «الرمز الطبيعى ودلالته فى شـعر سـليمان العيسى (ديوان أنا والقـدس)» قام بها "صادق فتحى دهكردى" وزميله، نشـرت عـام ٢٠١٧ م فى العدد الـ٣٥ لمجلة كلية التربية الأساسـية للعلوم التربوية والإنسـانية بجامعة بابل. والمقالة تعالج الرموز الطبيعية فى شـعر سليمان العيسـى للكبار فى ديوان "أنا والقدس". فمن البديهى أن الرموز الموجهة للأطفال تختلف عن الرموز التى تناسـب عالم الكبار، فلكل فئة رموزها الخاصة تتلائم مع عالمها الذهنى.

كمـا قام "محمد عزام" فى مقالة تحت عنوان «دراسـة مضامين شـعر الأطفال عند سـليمان العيسى» والتى نشرت عام ٢٠٠٨م فى موقع منتديات ستار تايمز، قام بمعالجة المضامين الشعرية الأساسـية فى دواوين العيسى للأطفال وبين العلاقة بين موضوعاته الشعرية وأفكاره الاجتماعية والسياسة.

لكن بالنسبة لدراسة فاعلية الرموز الطبيعية فى قصائد الأطفال لسليمان العيسى لم يجد الباحث بحثاً تناول هذا الموضوع بالشكل الذى نحن بصدد دراسته. وخلال البحث فى المكتبات وأيضا المواقع الإلكترونية العربية والفارسية، لم تعثر الباحثة على بحث قام بدراسة كتاب "أراجيح تغّنى للأطفال".

أدب الأطفال؛ سماته وأهدافه

ولأدب الأطفال تعاريف مختلفة منها أن أدب الطفولة هو الكلام الجيد الذى يحدث فى نفوس الأطفال متعة فنية سـواء أكان شـعرا أم نثرا وسـواء كان شفويا بالكلام أو تحريريا بالكتابة ومثال ذلک: القصص والمسرحيات والأناشيد. (نجيب، ١٩٩٩م: ٢٧٩-٢٨٠)

وبطبيبعـة الحـال هناک فرق بـين أدب الأطفال وأدب الكبار فى بعض السـمات والخصائـص، فالأول موجه للطفل فى أنواعه مختلفة شـعرا ونثـرا، ويهتم بالخصائص

النمائية للطفل وله أثر فى نفوس الأطفال من متعة وراحة وتشويق إلى جانب الأهداف والأغراض الأخرى التى لابّد من التركيز عليها. فللأدب مسؤولية إمداد الطفل لتحقيق الأهداف المنشـودة وله دور فى إشـباع اهتماماتهم وتربية أذواقهم وإثراء لغتهم. (بن عمر، ٢٠١٤م: مقدمة البحث)

ويعتبر الشـعر أكثر الأنواع الأدبية تأثيراً فى تربية الأطفال وتنمية قدراتهم بسبب ما يحمله من عواطف وأحاسيس جياشة ومؤثرة إضافة إلى الموسيقى التى تساعد على نقل المفاهيم وتخليدها فى أذهان الأطفال. و«الشعر لا يعكس الحياة فحسب ولكنه فوق ذلـک يظهرها فى أبعاد جديدة ولأنه لايقتصر على متعة الموسـيقى والعاطفة بل ينتقل منها الى الحكمة فوق أنه يدخل البهجة والفرحة على الأطفال ينبغى أن يساعدهم على تنمية مدركاتهم ونفاذ بصيرتهم.» (الحديدى، ١٩٨٩م: ١٩٩)

إن تدعيم البناء الروحى والمادى للطفل، وتلقين القيم والسلوكيات والآداب العامة، وغرس المبادئ الدينية وتقوية الاعتزاز بالوطن والأمة والإسهام فى بناء الوطن وإثراء اللغة العربية الفصحى، وتشجيع الطفل على حرية التعبير وأساليب التفكير من الوظائف التى تؤديها أدب الأطفال. (خوانى، ٢٠٠٨م: ٦)

الرمز ودوره فى أدب الأطفال

فأما الرمز لغة يطلق عند العرب على الإشـارة بالشـفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليد والفم واللسـان. (فيروزآبادى، ١٤١٥ق: ٢٨٤/٢) أو الرمز تصويت خفى باللسان كالهمس. (ابن منظور، ١٤١٤ق: ٣٥٦/٥)

أما اصطلاحاً أن الرمز «فن بيان الأفكار والعواطف والرغبات والمشاعر والانفعالات الباطنة وبيان الأفكار التى تدور فى خلد الإنسان، ليس على سبيل الوضوح ولا على سبيل تشبيه تلک العواطف والمشاعر والأفكار بالتصورات الحسية الواضحة، بل على سبيل الإيماء والإشارة إلى كيفيتها أو ماهيتها مع الاستعانة بالرموز غير واضحة لإيجاد صورة عن تلک العواطف والأفكار فى ذهن القارئ.» (تشادويک، ١٣٧٨ش: ١)

إن الرمز «هو وسيلة إدراک ما لا يستطاع التعبير عنه بغيره فهو أفضل طريقة ممكنة

للتعبير عن شئ لا يوجد له أى معادلة لفظى بديل من شئ يصعب أو يستحيل تناوله فى ذاته.» (عكاشة، ١٩٩٤م: ٨٥)

إن فى عالم الأدب يمكن الارتباط بالعوالم غير المعروفة والموجودات المتافيزيقية عن طريق المرمز. والرمز ينقسم الى قسمين: الرموز العامة والرموز الخاصة؛ والرموز العامة تشتمل على الرموز الأسطورية، والتاريخية، والدينية، والصوفية والطبيعية. والرموز الخاصة تعنى توظيف الرموز العامة و إعطاءها دلالات جديدة حتى يكسب النص إيحاءات جديدة. (هجيرة، ٢٠١٥م: صص٢٣-٣٢)

أما المراد من الرموز الطبيعية التى هى موضوع دراستنا، فهو تقديم صورة رمزية عن الأشياء الطبيعية حيث يقوم الشاعر بتحويل العناصر الطبيعية كالجبل والبحر والشجر والأزهار إلى رموز تبوح بما يختلج فى صدره ومخيلته من المعانى الشعورية التى لا يمكن صبها فى قالب الألفاظ الواضحة. وباختصار هو «استخدام الشاعر لعناصر الطبيعة ليعبر بواسطتها عن أحاسيسه وعما يختلج فى فؤاده من مشاعر وانفعالات.» (نفس المصدر: ٤٧) ثم إن توظيف ما يوجد فى الطبيعة من كائنات وظواهر وألوان وطيور وأزهار و... فى الشعر وإضفاء معان رمزية عليها هو دلالة على السعة النفسية عند الشاعر كما أنه دلالة على خياله اللطيف، «فالرمز الطبيعى أصبح معبرا آخر للشعراء لتوحيد الذات بالعالم والتعبير عن دلالات تجربتهم باستبطانهم لطاقات هذا الرمز وشحنة بحمولات شعورية وفكرية جديدة.» (رمانى، لاتا: ٢٨٨)

فالرموز الطبيعية تمتاز بالحيوية والمرونة لأنها تتغير وتتحول دائما بفعل التطورات الاجتماعية فإنها توفر للشاعر أرضية مناسبة للإبداع الفنى. لذلک يمكن للشاعر أن يتصرف تماما فى الرموز الطبيعية وفق ما يجول فى ذهنه من المشاعر والعقائد الخاصة. ولهذا «يكون للرمز الطبيعى ذا قيم جمالية متباينة ومتناقضة أحيانا فى النصوص الشعرية.» (بلاوى ومهتدى، ١٤٣٦ق: ١٨٧)

والحقيقة هى أن الرمز قليل الإستعمال فى أدب الأطفال وذلک بسبب صعوبة فهم دلالات الرموز بالنسبة للأطفال. لكن مع ذلک فإن التوظيف الهادف للرموز فى أدب الأطفال يسهل عملية عرض الأحداث والمفاهيم ويجعلها ملموسة. إضافة إلى ذلک أن

الشـــاعر وعبر استخدام الرمز يثرى لغته الشعرية ويجعلها أداة لنقل المفاهيم التى تدور فى مخيلته وبذلك يتمكن من نقل المفاهيم والقيم الأخلاقية والتربوية التى يريد إدخالها فى أذهان الأطفال.

ولتوظيف الرموز واســتخدامها شــروط منهــا يجب أن تكون لتلــك الرموز قرائن تســاعد على تحديد الرموز من جهة وكشف مدلولاتها من جهة أخرى. ومن الخصائص الرئيســة لاســتخدام الرموز فى الأدب خاصة أدب الأطفال، يمكن الإشارة إلى وجود مشتركات بين الرموز والمصاديق الحقيقة لمعنى الرموز الموضوع، وأيضا انسجام وتلائم الرمز ومضمون النص وغايته، وذلك بسبب تناسق الحركات والسكنات التى تتميز بها الرموز مع الخصائص الخارجية أو المادية والخصائص الداخلية أو المضمون.

فى شــعر الأطفال بســبب عدم تمكن المخاطب من فهم واســتيعاب الصور العميقة، لابّــد من التعبير عن المفاهيــم بصور مفهومة وذلك عبر الاســتعانة بالمفردات الرمزية الســمتلهمة من البيئة الطبيعية التى يعيش فيها الطفــل. وعليه فإن المقصود من الرموز الطبيعية فى شــعر الأطفال هو خلق صور رمزية من جميــع الكائنات الحية، والعناصر غير الحية الموجودة فى الطبيعــة، بهدف التعبير عن الأفكار والمفاهيم. ومعنى ذلك أن الشــاعر يعمد إلى خلق رموز عبر الاســتعانة بالكائنات الموجودة فى الطبيعة كالجبل والبحر والشجر و... الخ، ليتمكن من التعبير عن المفاهيم الميتافيزيقية الموجودة فى ذهنه، ويجعلها ترتقى لتصبح صورا حسية بعد أن كانت عصية على الفهم.

تحليل الرموز الطبيعية فى شعر سليمان العيسى

لاشــك أن أحد أرقــى وأجمل العناصر الموجودة فى شــعر الأطفــال هى العناصر المســتلهمة من الطبيعة. الحيوانات والأعاشــب وباقى الكائنات الحية والأشــياء غير الحية كالجبال والأشــجار والرياح والأمطار، والفصول والألوان المختلفة الموجودة فى الطبيعة هى عناصر لها تجليات مختلفة فى أدب الأطفال لاســيما الشعر منه. ويرى العالم النفسانى "جون بياجه" بأن الأطفال لايميزون بين الفوارق الموجودة بين الكائنات الحية والكائنــات غير الحية. ثم إن الأصل لدى الأطفــال هو ان جميع الكائنات حية، لذلك

فانهم ينسبون كافة الظواهر وأحداث الحياة إلى الأشياء والتطورات التى تحدث من حولهم. (بلالى، ١٣٧٩ش: ١٢) وعليه فان الشاعر الذى ينشد شعراً للأطفال يستعين بالظواهر الطبيعية لنقل ما يدور بباله من أفكار ومفاهيم وذلک بحسب نظرته لفترة الطفولة ومعرفته بمدى علاقة الطفل بالطبيعة وما فيها من كائنات وجمادات وأيضا مدى تأثير الطبيعة على النمو العاطفى والعقلى للطفل.

ويرى سليمان العيسى بأن التربية فى أحضان الطبيعة هى أحدى وجوه التربية. ولعل ذلک هو السبب الذى جعل الطبيعة فى شعره ليست ساكنة جامدة وإنما هى متحركة تعلم الأطفال وتشاركهم مختلف ضروب الفرح والابتهاج، فى ربيعها، وخريفها، وشتائها، وصيفها. ولا نبالغ إذا قلنا إن سليمان العيسى يحذو حذو "جان جاک روسو" فى الدعوى إلى تربية الأطفال فى حضن الطبيعة الدافئ، لينهلوا منها الجمال والحرية. من هنا كان تأكيد الشاعر على وصف الطبيعة فى حالاتها المتغيرة، ووصف الأطفال وهم يمرحون فيها.

(عزام، 2008: http://www.startimes.com/?t=12569686)

إن الشاعر الذى نريد تحليل شعره فى هذه الدراسة هو شاعر عاش فى الريف بين جناحى الطبيعة فتأثر بمظاهرها الخلابة. والملاحظ من خلال أشعار العيسى أن "شجرة التوت" من الأشياء أو الكائنات الطبيعية التى تشكل جزءا لايتجزأ من حياة الشاعر؛ تلک الشجرة التى –كما يذكر الشاعر نفسه– كانت موجودة فى منزل والده وصنع داخلها بيتاً بمساعدة أخيه حيث كان يقضى فيها أيام وليالى الصيف. وقد ظهرت موهبته الشعرية فى سن مبكر (بين التاسعة والعاشرة من عمره) فى ظلّ هذه الشجرة.

إن تكرار اسم هذه الشجرة فى اشعار العيسى هو دلالة على العلاقة بين الشاعر والطبيعة وأيضا مدى حبه لها. (العيسى، ٢٠١١م: ٢٢٦)

وكذلک بلغته الشعرية تحدث لنا عن صحبته القوية للطبيعة ويقول:

أُذكروا إنّى عشقتُ الأرضَ وأحبَبتُ الحَياة/أُذكُروا إنّى كالأطفالِ غنَّيتُ/وطاردتُ الفراشاتَ طَويلا /وقَطَفتُ التينَ والرّمانَ من بستانِ جَدّى والقَمر. (المصدر نفسه: ٨)

يبدو أن حب سليمان العيسى للطبيعة وإنشاده أشعاراً عن هذه العلاقة، يعتبر

محاولة لهروب الشـاعر من الواقع الاجتماعى والسياسى المرير والمؤلم الذى كان يسود المجتمع آنذاك، خاصة بعد الهزائم المتتالية للجيوش العربية فى الحروب ضد إسرائيل. إن شـاعرنا كان يبحث عـن ضالته وتحقيق أحلامه فى الجبـال والوديان وفى الأنهار والأبحـار؛ «حلم تحريـر أهالى القرى من صعوبات الحياة وحلـم الوصول إلى الحرية وحلم الوحدة العربية.» (العيسى وأبيض، ٢٠١٣م: ٢٨)

إن شـعر سليمان العيسـى وكباقى الأشـعار القومية والوطنية، ملئ بأنواع الرموز خاصة الرموز الطبيعية، حيث يوظف الشـاعر تلك الرموز لكى «يجسد للأطفال قضايا أمتهم الكبرى بمحسوسات معروفة لديهم منتقلا بهم من المجرد إلى المحسوس ليقربها إلى أفهامهم وضمائرهم.»

(عزام، 2008م: http://www.startimes.com/?t=12569686)

إن الشـاعر يعتبر جمال الطبيعة كجزء أو مظهر من جمال الوطن لذا يسـعى إلى أن يقيـم علاقة بين الطبيعة والوطن من خلال توظيفه للرموز الطبيعية «الشـفافة مما ينمى ذائقة الأطفال ويصقل وجدانهم الجمالى.» (نفس المصدر)

الحيوانات

منذ القـدم كانت للحيوان مكانة خاصة فى حياة الإنسـان. ثمة خصائص وصفات مشـتركة بين الإنسـان والحيوان منها الذكاء والشـطارة، والبلاهة والحماقة، والوفاء وعدم الوفاء، لذا يمكن للحيوانات أن تتحول لرموز يعبر عنها الإنسـان عن أحاسيسه ومقاصـده فى الحيـاة اليومية، وعليه يمكن القول بأن توظيـف الحيوانات وصفاتها فى الكلام يساعد على التعبير عن المفاهيم أو الصفات الانتزاعية بصورة رموز طبيعية.

والملاحظ فى شعر سليمان العيسى أن أسماء الحيوان التى ذكرها الشاعر فى قصائده أخذت دلالات رمزية غير معروفة لدى الجميع. فغالبية هذه الرموز هى رموز شـخصية تعبر عن أحاسـيس الشـاعر وطموحاته اسـتخدمها للتعبير عن القضايا الاجتماعية والسياسـية أو اسـتعان بها لبيان مفاهيم تربوية. الجدير بالذكر أنه بما أن المخاطب فى هذه القصائد هم الأطفال، فإن استخدام أسماء الحيوانات له دور كبير وفاعل فى التعبير

عن القضايا وإيصال الرسالة بسهولة للشخص المرسل إليه. النقطة الهامة التى يمكن الإشارة لها هى أن استعانة الشاعر بالحيوانات البرية للتعبير عن مقاصده أكثر من استعانته بالحيوانات المائية، وسبب ذلک «إن حب الأطفال للحيوانات البرية أكثر من حبهم للحيوانات المائية (ماعدا السمكة)، وسبب ذلک هو خصائص العيش المشتركة بين الحيوانات البرية والإنسان.» (نصرتى، ١٣٨٨ش: ٥٩) وقد وردت أسماء العديد من الحيوانات والطيور المختلفة كالعصفور والعندليب والكنارى والنسر وأنواع أخرى من الطيور. ثم إن توظيف العيسى لكلّ تلک الكائنات هو توظيف أو استخدام ذات دلالات رمزية عبر عنها سليمان عن مقاصده. وفى أشعار العيسى، ترمز طيور الصيد إلى القوة والصلابة، وفى المقابل ترمز الطيور الصغيرة إلى السلام والود والمحبة والصداقة إضافة إلى أنها ناقلة لرسائل الحرية والسرور.

نحنُ الطيورُ/إذ نَبدأ الغِناءَ فى السِّحرِ ونَسكُبُ الألحانَ/ لنوقظَ الحياةَ فى العالمِ المَواتِ /ونَزرعُ الوئامَ والحبَّ والسلامَ (العيسى، ٢٠٠٩م: ٨٦)

بما أن العيسى فى قصائده قد شبه الأطفال بالطيور فى أكثر من مناسبة؛ يمكن القول أن القصد من الطيور فى هذه الأبيات هم الأطفال؛ أولئک الذين ينظرون إلى الحياة البائسة من منظار الشاعر ويبعثون الحياة والأمل فى الكون ويزرعون أشجار السلام والمحبة فى فيه بعدما كان جسماً ممزقاً. وخلاصة القول إن هذه الأبيات هى صورة لآمال الشاعر وطموحاته المتمثلة بإحياء مواريث الأجداد من قبل الأطفال فى كافة الأقطار العربية والتميز بالطموح لبناء مستقبل زاهر للأمة العربية.

يعتبر العصفور من الطيور المعروفة لدى الأطفال أو ربما أقربها بالنسبة لهم. إن لهذا الطائر خصائص تجعله كائنا يشبه الأطفال، ومن تلک الخصائص صغر حجمه، والتحدث السريع وروح الدعابة والنشاط والحيوية. لذلک نرى العصفور من أكثر الطيور استخداماً وتوظيفا فى شعر سليمان.

العصفور فى شعر العيسى خاصة فى كتابنا هذا رمز للطفل العربى الذى سيبنى المستقبل؛ المستقبل الذى سيؤدى إلى تحرر الشعوب العربية وتخلصها من النقم:

يا عصافيرَ الجَبَل/ يا فراشات الجَبَل /رَفرِفى من حولِنا/واطرُبى من قولِنا/

للصِّنوبرَات /جدَّ عالِيات/ انقُلى لَحنَ الأَمل/ يا عصافيرَ الجَبَل (المصدر نفسه: ١٠٨)

فى هذا الشعر نرى صورة لعالم الأطفال الذى يختلف عن عالم الكبار؛ فالعصافير رمز الأطفال، والجبال وأشجار الصنوبر رمز للكبار. إن الشاعر هنا يطالب الأطفال بإنشاد أنشودة الأمل لإيقاظ الكبار من نومهم العميق.

أو فى هذه الأبيات:

أرقدى ما شِئتَ خَلفَ الحُفَر/فى جُذوعِ الشَّجَر/ارقدى ..يا كائناتَ الخِدر/العصافيرُ رموزُ /وأغانينا كُنوز /وإذا ضاقَ بنا يوماً مَكان /مثلُ لَمحِ البرقِ طِرنا لِمكان/وحَملنا مَعنا نبضَ الحَياة (المصدر نفسه: ١٥٤)

إن المخدرات فى الحجال والقاطنين فى الحُفر هم رمز لأفراد المجتمع من الكبار الذين دخلوا فى سبات عميق (والمقصود هنا المجتمعات العربية). إن الشاعر يرى بأن هؤلاء الكبار ابتعدوا عن المنهج الصحيح وقمة الحضارة العربية المجيدة وسقطوا فى الحضيض. والعصافير هنا رمز للأطفال الذين يرفضون الاستسلام والجمود ويريدون التحرك نحو التحرر. إنهم ينشدون أنشودة الحرية وبذلك يريدون إيقاظ الكبار من نومهم العميق. إن الساحة التى تطير فيها العصافير هى الأراضى العربية، لذا فإنها لاتتوقف عند مكان واحد وتحمل معها رسالة ديمومة الحياة واستمرارها من منطقة إلى منطقة أخرى.

والعصفور كذلك فى أشعار سليمان هو رمز للأطفال المشردين الفلسطينيين الذين اقتلعوا من جذورهم وهم الآن يبحثون عن إثبات الهوية التى فقدوها.

العصافيرُ/ هاجَرت مُنذُ زَمَن/غادَرَت أعشاشَها../وغابت وراءَ الأُفُق/تَبحثُ عن نفسِها، عن حياتِها/لا عن مأوى../كلُّ مكان يُمكن... (المصدر نفسه: ١٢٣)

إن الحلقة المفرغة فى حياة الطفل الفلسطينى لسيت الأرض فقط، لأن كل أرض من الأراضى العربية أرضه ووطنه. إن حلقته المفرغه هى هوية الطفولة، لذا فانه يبحث عن هذه الهوية فى صفحات التاريخ العربى المجيد. إن الشاعر يرى بأن الحصول على هذه الحلقة المفرغة (الهوية) يعنى خروج الأمة العربية من الأزمة التى دخلت فيها واستدعاء الهوية الضالة بالرجوع الى مجدها لقديم.

بالنظر إلى تجليات رمز الطير فى اشعار العيسى، يمكن القول بأن العصفور يعتبر من الرموز الشـخصية التى أوردها سـليمان فى شعره؛ بمعنى أن الشاعر خلق من العصفور رمزاً خاصاً به. «إن الرموز الشخصية توضع بحسب تجارب الشاعر ونفسياته ومعتقداته، لذا فان معرفة تلك الرموز بحاجة إلى معرفة حياة الفنان وآراءه ونفسـياته.» (شاملى وآخرون، ١٣٩٧ش: ٨) إن العصفور بشـكل عام رمـز الخوف والضعف، ولكن يأخذ معنا رمزيا آخر فى شعر العيسى حيث يصبح رمزا للأطفال الفلسطينيين، أولئک الذين فى رأى الشاعر سيحققون الانتصار ويصنعون المستقبل. أولئک «الذين سيكونون خير من يتولى حمل الرسالة وإيصالها إلى غايتها.» (أبيض، ٢٠٠٩م: ١٠)

ومن الحيوانات الأخرى التى أضفى عليها الشاعر معنى رمزيا فى شعره، هو "الوعل" الـذى يعتبر رمزا للصمود وعدم الخنوع والسـعى للوصول إلى الحرية. وهذا الرمز فى شـعر العيسى، يعتبر من الرموز الشـخصية للشاعر بحيث لم يشر إليه ولم يستخدمه أحد من قبل، والرمز الشخصى هو الذى «يبتكره الشاعر ابتكارا محضا أو يقتلعه من حائطه الأول أو منبته الأساس ليفرغه جزئيا أو كليا من شحنته الأولى أو ميراثه الأصلى من الدلالة ثم يشحنه بشحنة شخصية أو مدلول ذاتى.» (كندى، ٢٠٠٣م: ٢٥٣)

لذا فان شفيرة هذا الرمز تفک من خلال شعر العيسى فحسب، وفى باقى النصوص لايمكن استخراج هذا المعنى الرمزى الذى ابتكره الشاعر.

نلاحظ فى الأبيات التالية كيف يقوم الشـاعر بعملية ابتكار معان رمزية من خلال إشارته إلى هذا الحيوان، إلى جانب إضفاءه معان ودلالات رمزية على النسور والتلال والوديان والسحاب.

يا نسـمةَ الجبال/ يا نقّيَة/ يا نَسـمةَ الجبال/ إنّا عشقنا الشـمسَ والحرّيةَ فى هذه التِّلال/ من صَخرة لصَخرة نَدور /ويَضحَکُ الغَمام/ يرُّشـنا بالأخضَر المَسحور/ فعَيشُنا أحلام/يا أيّها الجيرانُ فى السُّـهول/ تسلَّقوا القِمَم/ عيشوا مع النُسور والوُعول/ المجدُ للقِمَم. (العيسى، ٢٠٠٩م: ٢٦ و ٢٧)

إن الصورة التى يرسمها الشاعر للمتلقى فى إطار نظامه القيمى والتربوى هى صورة رمزيـة عن المجتمع الإنسـانى، حيث يسـعى البعض لتحقيـق طموحاتهم وطموحات

الآخرين. إن الشاعر يرى بأن هؤلاء الأشخاص هم كالوعل الذى يتسلق الصخور والجبال والتلال من أجل الوصول إلى الحرية وتحقيق أهدافه والعيش فى الأعالى، فى حين يتوقف البعض عند المنحدرات للعيش هناك. إن الوعل فى هذا الشعر يخاطب اولئک الذين توقفوا فى المنحدرات ويدعوهم للتحرک نحو القمم والعيش إلى جانب النسور، لأن هذا الحيوان يرى بأن العزة لأهل العزم الذين يسيرون نحو القمم ولايتوقفون عند المنحدرات. هذه الأبيات تدل على قطع أمل الشاعر بجيله، لذلک أنه يستخدم قناع الحيوانات ليدعو الأطفال للعيش برفاهية والتحرک نحو التغيير والتطور وصناعة مستقبل ناجح وزاهر. إن النسر فى هذا الشعر هو رمز لبعد النظر والحذاقة والقوة والنُبل. ثم إن الشمس والرياح والسحاب والمطر كلها يرمز إلى النور والأمل. والصخرة هى رمز للمعوقات والمشاكل، وعبر هذا الرمز يؤكد الشاعر على ضرورة عدم التخلّى عن الهدف بالرغم من جميع الصعوبات والمعوقات التى تواجه الفرد. إن هذه الصورة عن المجتمع الإنسانى تعبر عن أمنية الشاعر وحلمه الرئيس، وهو «الوحدة الوطنية، الدولة الوطنية الكبرى التى تحمى الأولاد من الذى يريد أن يقتلعهم من يشاء ساعة يشاء من بيوتهم ومن تحت ظل شجرة التوت التى يعيشون تحتها.»

(عزام، 2008م: http://www.startimes.com/?t=12569686)

ومن الحيوانات الأخرى التى ذكرها سليمان العيسى فى شعره هى الهرة. وفى قصيدة له تحت عنوان "الهرة تبقى هرة" يتحدث لنا الشاعر على لسان قطة؛ تلک القطة التى ترمز للإعجاب بالرأى والنفس والغرور والكبرياء:

يا ناسُ/ يا بشرُ/ يا أرضُ/ يا شجرُ/ الفَهدُ والنَمِر /من أُسرة الهَرَرة /من هذه الشَجَرة/ منّى أنا النَمِر/ والفَهدُ يا بَشَر. (العيسى، ٢٠٠٩م: ٧٦)

يطمح الشاعر بلغة فكاهية من خلال هذه الأبيات إلى تعليم مفاهيم التواضع والتسامح للأطفال. إن القطة بسبب تصرفاتها المليحة وفى نفس الوقت تحايلها ومراوغتها، فإن لها رموز ودلالات خاصة تختلف من ثقافة إلى ثقافة أخرى بحيث أن دلالات رموز هذا الحيوان تتراوح بين السعد والنحس، حيث تراها بعض الثقافات نذير شؤم وأخرى منها ترى عكس ذلک. وتُعتبر القطط فى الإسلام حيوانات محببة إلا

إذا كان لونها أسود. (شواليه وآخرون، ١٣٧٧ش، ج٤:٧٠٠) وبالنسبة لاستخدام القطة فى شعر العيسى يبدو أن توظيف العيسى لهذا الحيوان كرمز الغرور و الإعجاب بالنفس هو توظيف ذات معنى شخصى. له دلالات رمزية خاصة تعبر عن ما يكنه الشاعر من مشاعر، حيث لايمكن العثور على تلك الدلالات التى أرادها الشاعر من خلال هذا الرمز، فى النصوص الأدبية الأخرى.

والمعروف أن الشعراء يضيفون على الحيوانات معان أو ينسبون لها صفات أو هوية جماعية بناء على سنن مجتماعاتهم وعاداتها. على سبيل المثال، تعرف السلحفاة فى المجتمعات المختلفة بالخمول برغم معرفتها ببعض الأمور، والثعلب يعرف بالمخادعة، والكلب يعرف بالوفاء والحمار رمز للبلاهة. لكن سليمان العيسى يثور على تلك السنن والمفاهيم ويسعى إلى إعطاء معان أخرى مغايرة للمعانى المعروفة فى المجتمع، وبالتالى رسم المعانى الجديدة فى أذهان الأطفال عبر تحطيم المعانى والرموز المعروفة القديمة لدى الجميع.

على سبيل المثال فى هذا الشعر:

أنا سلحفاةٌ عندى../ تأمُّلاتى وصَمتى/ ولاأقتُلُ نَفسى/ لكَى أقَصِّر وقتى/ سعيدة بُهُدوئى/ كَثيرةُ مُنجَزاتى. (العيسى، ٢٠٠٩م: ١٨٢)

إن الشاعر هنا ينظر إلى صفة الكسل والخمول التى تتسم بها السلاحف نظرة إيجابية، ويقرر بأن بطئ حركة السلحفاة هو دليل لطول عمره. ثم إنه قد قصد من خلال الإشارة إلى هدوء السلحفاة وطريقة مشيها البطئ، إيصال رسالة أخلاقية يذكر القارئ من خلالها بأن الهدوء والصبر هما السر الرئيس لتحقيق نجاحات وإنجازات كبيرة. إن السلحفاة فى هذا الشعر هى رمزٌ للصبر والصمود والتفكير والتخطيط لتحقيق نجاحات كبيرة.

وفى هذا الشعر المعنون بـ"الحمار يدافع عن نفسه" ينظر بنظرة مختلفة عن النظرة أو الخطاب السائد عن الحمار، ويقول بلغة تهكمية:

كلُّهم يَهزأ منى..كلُّهم/من غبايى ضاحكٌ أو ساخِرٌ/أنا أذكى الناسِ حينا ولى/ غفلةٌ حينا وفكرٌ قاصرٌ/أتراهُم كلَّهم من عبقر/فيهم ألفُ حمارٍ سائرُ. (المصدر نفسه: ٧٧)

إن هذه الأبيات هى إشـارة إلى واقع المجتمع، حيث يوجد فيه أفراد يحكمون على الأشـياء قبل ولادتها أو يطلقون أحكامهم على الآخرين بشـكل متسرع. كما يظنون أنهم أذكياء حيث يرمون الآخرين بالجهل ويثبتون لأنفسـهم العلم والتدبر. إن الشـاعر يشـير إلى هذه القضية الاجتماعية ويتحدث عنها بلغـة الحيوانات. ويرى بأن الحمار ليس رمزاً للبلاهة وإن الناس هم الذين وصفوه بالحمق والبلادة والبلاهة، والحقيقة أنه برىء من هذه الأوصاف.

وكذلك ينظر نظرة مختلفة للثعلب الذى يعرف فى الثقافات المختلفة بأنه رمزٌ للخدعة والإغواء. (شكر، ١٩٨٥م، ٢٤٨:١)، يقول فى أحد أشعاره:

أصبحتُ رمزاً للخُداع/وقصةً فى إثرَ أُخرى../كلُّهن خَيال/تلك الشرارةُ من ذُكائى مَرة/ تُذكى ومَراتٍ تَسـوءُ الحال/الثَعلبُ المُحتالُ..كم من سَـقطة/ أقسَمتُ من إثرِها لا أحتال/إنى لِأكسِـبَ لُقمَتى بمَرارة/ ويُقال عَنّى ..أُتركوه يُقال/قِصَصٌ..وأجملُ ما يُسلّينى بها/ ويسرّنى أن يضحك الأطفال. (العيسى، ٢٠٠٩م: ١٧٠)

إن الثعلب فى هذا الشعر يظهر لنا كثعلب ذكى يحب الأطفال ويريد إضحاكهم خلافا لمـا يعـرف عنه بانه حيوان مخادع. يبدو أن محاولة سـليمان للخـروج عن المألوف فى التعامل مع الحيوانات والانزياح عن المعانى والصورة الموروثة لتلك الكائنات، جاءت بهـدف تغيير نظرة الأطفال إلى الأحـداث الاجتماعية وتمكينهم من التعامل مع الأمور بنظرة أشمل وأوسع خارج تصوراتهم واعتقاداتم الموروثة.

إضافـة إلى ذلك، يبدو أن نظرة الشـاعر المختلفة لهذه الحيوانات هى إشـارة إلى طموح الشـاعر وآماله حول تحول مجتمعه إلى مجتمع مدنى حر يراعى حقوق الإنسـان ويتمتع كافة أفراده بالحرية والحقوق بنسب متساوية.

الملاحظ من خلال شـعر سليمان العيسى، إنه لاوجود للحيوانات المفترسة فى عالم العيسى الشعرى إلا مرة واحدة فى الأبيات التالية، حينما توجه إحدى الأغنام سؤالا عن أسباب خلقة الذئب وتخاطب الله كالتالى:

لماذا تكونُ الذئاب؟/نَعيش بِخوف/نَموتُ بِخوف/ولم نَجنِ شَـيئاً/ولم نُؤذى حيّاً/ لِماذا لِماذا الذئاب؟ (المصدر نفسه: ١٧٩)

إن عـالم الطفل يجب أن يكـون عالماً خال من العنف، لذلک فـان الذئب لا يتلائم مع عالم الشـاعر الذى ينشد للأطفال، لأن عالم الأطفال مليئ بالأحاسيس والعواطف، لذا فإنه يطرح أسـئلة عن فلسـفة وجود هذا الحيوان. وبالنظر إلى الظروف السياسية والاجتماعية التى كان يعيشـها الشـاعر آنذاک، يمكن القول بأن الذئب هو رمز العدو والأغنام رمز للأطفال المظلومين الأبرياء الذين يعيشـون حياة بائسـة فى بعض الدول العربيـة كفلسـطين فأصبحوا ضحية العدو الـذى يتعامل معهم معاملـة الذئب. لذا إن «الذئب قد جاء فى شـعر سليمان العيسى وبسـبب وجود صفات مشتركة بين الذئاب والصهاينة كالغدر والظلم والحـرص، جعل الذئب رمزا للعدو الصهيونى. هذه الصفات المشتركة يعنى الوحشية والغدر والحرص صلة ذاتيّة بين الذئاب والصهاينة.» (دهكردى، ٢٠١٧م: ٣٠٢)

الأعشاب

إن الأزهـار والأعشـاب، وأنواع الأشـجار والأغصـان والأوراق بالإضافة إلى اخضرار تلک الأوراق والأغصان حاضرة بشكل كبير فى أشعار العيسى حيث أضفى الشـاعر عليها دلالات رمزيـة خاصة، وغالباً ما تكون لتلک الرموز إيحاءات ترسـم صورة عن طفولة الشاعر أو ماضيه الجميل؛ تلک الطفولة أو الماضى الذى قضاه الشاعر بين الأشجار والأجواء اللطيفة وسط المروج الخضراء.

وكباقى الشعراء الذين كتبوا للأطفال، فان استخدام العيسى للأعشاب والأزهار فى شعره أقل من توظيفه للحيوانات، «ذلک لأن علاقة الأطفال بالحيوانات أكثر من غيرها وبسبب قدرة هذه الكائنات على الحركة.» (بلالى، ١٣٧٩ش: ١٥)

على سبيل المثال "فواغم" (الأزهار العطرة) و"البراعم" فى شعر سليمان العيسى هى رموز لتجديد وانبعاث الحياة.

وأتـى جُيـوشُ صَوادح و فَواغِم/ هيّـا افتَحوا الأبوابَ سـوف أَدُقُّها /حتّى أرى الأَغصانَ نَهرَ بَراعِم. (المصدر نفسه: ٣٢)

إن الأعشـاب أو الأزهار العطرة إلى جانب الطيور المغردة هى رمز للأطفال الذين

سوف يطرقون أبواب البيوت العربية وسيحملون معهم رسائل الحياة والانبعاث الجديد للأمة العربية. وكذلک "الأشـجار" وأغصانهـا فى هذه الأبيات ترمز إلى الوطن العربى الواحد. إن الشاعر يرى بأنه سيأتى يوماً ينتفض فيه هؤلاء الأطفال ويعملون من أجل اسـتعادة الهوية العربيـة الضائعة، وبنضالهم وكفاحهم يجعلون الأشـجار التى هى كيان العالم العربى، مورقة ومزهرة. إن الأزهار التى ترمز إلى الأطفال الذين سـوف يسعون وراء اسـتعادة أمجاد الأمة العربية ويحافظون على هويتها، أو أغصان الشجر التى ترمز إلـى الوطن العربى، هى مـن الرموز ذات الدلالات الخاصة التى خلقها الشـاعر عبر توظيفه للكائنات الطبيعية.

الكائنات الطبيعية غير الحية

إن العـالم النفسـانى "جون بياجه" يؤكـد بأن عقلية الأطفال فى سـن الثانية حتى السابعة من العمر تختلف بشكل كبير من عقلية الكبار، حيث أن الطفل فى هذه المرحلة يرى جميع الكائنات حية. فبالنسبة للطفل فى هذه الفترة العمرية تعتبر الأشجار والجبال والشـمس كائنات حيـة يمكنه أن يتحدث معها. (كيـكان، ١٣٨٤ش: ٤٥٦) لذلک فان العديد من الشـعراء والكتاب الذين يوجهون إنتاجاتهم للأطفال، استعانوا بالتشخيص بشكل مكثف، حيث يعمد الأديب إلى نسبة صفات البشر إلى أفكار مجردة أو إلى أشياء لا تتصف بالحياة.

(عزام، 2008م: http://www.startimes.com/?t=12569686)

والريح من العناصر الطبيعية غير الحية التى أضفى سـليمان عليها معنى رمزيا. إن الريح فى قاموس الرموز يدل على عدم الثبوت والتغيير والتحول وذلک بسـبب دلالته على الحركة والثورة. (شواليه وكربران، ١٣٧٧ش: ٦)

إن الريح فى الشـعر المعاصر إما يكون رمزا للثـورة والتجديد والتحول وإما رمزا للانهيـار والدمار. (صدقى وانصارى، ١٣٩٢ش: ١٣٢) وفى شـعر العيسـى، إن الريح كباقى المكونات الطبيعية التى وردت فى شعره، تلعب دورا إيجابيا أو لها فاعلية إيجابية. إن الريـح فى هذا الشـعر باعث على التفـاؤل والأمل، كما إنـه أداة لإيجاد الظروف

المواتية لمستقبل مبشر بالخير:

ريحُ الربيعِ أنا أشُّدُ عزائِمي/وأطيرُ ..لأوقظَ كلَّ شئٍ نائمِ/ يا أرضُ هَيّا،طال نومُكَ وانقَضى/عن مُقلَتَيكَ رؤى الشِّتاءِ الحالمِ. (العيسى، ٢٠٠٩م: ٣٢)

إن الريح فى أشعار العيسى كافة هى رمز «النصر والظفر والثورة». (دهكردى، ٢٠١٧م: ٢٩٨) وكذلك هنا فى أشعاره التى تخص الأطفال، رمز التغير والأمل، حيث يشبه الشاعر الريح بالطائر الذى يطير فى الهواء ويبعث الحياة فى الأرض النائمة والكائنات الساكنة فيها من جديد. من جهة أخرى، إن ذكر ضمير "أنا" بعد الرياح يزيد من ثقة الطفل بنفسه. ثم إن هذه الثقة تزداد شدة بعبارة "أشُّدُ عزائِمي". وبالتالى إن الأرض النائمة فى الشتاء هى رمز للوطن العربى الذى هو فى غفلة عن واقعه الذى يعيش فيه. فى هذه الأبيات يضع الشاعر الربيع والشتاء فى تقابل وتعارض مع بعضهما البعض. فالربيع رمز للإنبات والنمو والحياة الجديدة والشتاء رمز لعدم الاطلاع والتغافل والسكون. إن هذا التقابل والتعارض ناتج عن اختلاف نظرة الشاعر للجيل العربى الماضى الذى لم يدافع عن تراثه وتاريخه اللامع وجيل المستقبل الذى «يستمد أصالته فى مسيره نحو الظفر دون أن يغلق الأبواب على العالم المعاصر.» (عزام، 2008م: http://www.startimes.com/?t=12569686)

إن للشمس دلالات عديدة منها أنها رمز للعدالة والحرية والحق والحقيقة وايضا العظمة والحياة. (سهرابى:١٣٩٣صص٦-٢١) وفى شعر العيسى، تعتبر الشمس رمزاً للحياة والنور (الضوء) والبهجة والسرور.

الشمس والحرية فى فكر الشاعر لايفترقان أبدا:

يا نسمةَ الجِبال/ يا نقّيَة/ يا نَسمةَ الجِبال/ إنّا عشِقنا الشمسَ والحرّيةَ فى هذه التِّلال. (العيسى، ٢٠٠٩م: ٢٦و٢٧)

إن الشاعر وعبر لسان الشمس يريد من الأطفال أن يصبروا حتى طلوع شمس الحرية من جديد:

انتظرونى فى الساحات/ انتظرونى/ لى معكم أحلى الساعات/ انتظرونى (العيسى، ٢٠٠٩م: ٥٨)

إنهـا تطلب منهم انتظار فجر جديد محتوم للتخلّص والتحرّر من سـواد الليل الذى هو الظلم. والملاحظ هنا أن المعنى الرمزى الذى حاول الشـاعر رسمه هو نفس المعنى المعروف عن الشمس لدى الشعوب.

إن الحجارة هى إحدى الكائنات الطبيعية غير الحية، وتُعرف عادة بأنها رمز القسوة وعدم الرأفة. وفى الشعر المعاصر وبسبب ما حدث فى فلسطين من أحداث ومواجهات بين عدوّ مسلح بأنواع السلاح وبين شعب أعزل مظلوم ليس لديه سلاح يدافع عن نفسه إلا الحجـارة؛ أخذت الحجـارة دلالات رمزية جديدة، حيث أصبحـت رمزاً للمقاومة والصمود أمام العدو وسياساته العدوانية.

إن سـليمان العيسى بوصفه شـاعرا قوميا، اهتم بالقضية الفلسطينية اهتماماً بالغاً، ودافع عنها بوصفها القضية الرئيسـة للعـالم العربى، حيث برز مدافعا عنها وعن حقوق الأطفال الفلسـطينيين من خلال شعره. (العيسـى، لاتا، ٣: ٢٨٠) وأنشد ٧ أناشيد إلى جانب تأليفه لـ ٧ مسـرحيات فى القضية الفلسطينية. (أبيض، ٢٠٠٩م: ٣١) إن العيسى يعتقد بأنه لا يمكن التأريخ للحياة العربية إلا بتأريخ الحياة الفلسطينية ويرجو أن يكون شـعره تأريخا للقضية الفلسـطينية التى يسـميها "الجرح العربى الأول". (نفس المصدر: ٥٤) بناء على عقيدته، قد اسـتخدم الشاعر الحجر فى دلالته الجديدة المعاصرة. إنه فى أشعار العيسى ليس شيئا غير حى يُستخدم لبناء البيوت والجدران فحسب، بل إنه رمز المقاومة والصمود أمام اعتداءات العدوّ:

أنا الحجر/أكون أحيانا سلاحا رائع الأثر/أرد عمن يحتمى بى صولة الخطر/ ...أصدّ بطش غزوة/وأدفع العدوان والضرر. (العيسى، ٢٠٠٩م: ٨١)

والحجر من وجهة نظر الشاعر كشجرة صغيرة تنمو مع الأطفال، يترعرعون معها ولا يفارقونهـا أبدا. لذا فمن واجب صغـار الوطن العربى كلهم أن يكونوا خلف من يقفون فى الصف الإمامى من أشقائهم الفلسطينيين وأن ينضموا اليهم. (أبيض، ٢٠٠٩م: ٤٧)

الفصول

فى شـعر سليمان العيسى كل الفصول هى ربيع. المناظر الخلابة، والخضرة واعتدال

الجو فى فصل الربيع هى صفات تناسب الروح النقية واللطيفة للأطفال؛ تلك الروح التى تنبهر أمام كل شئ.

الربيع فى شعر العيسى رمز للحرية والظفر بعد شتاء الظلم والاحتلال؛ وتلك الحرية هى حرية الشعوب العربية خاصة الشعب الفلسطينى. (دهكردى، ٢٠١٧م: ٣٠٠)

ريحُ الربيعِ أنا أشُّدُ عزائمى/وأطيرُ ..لأوقظَ كلَّ شئٍ نائمِ/ يا أرضُ هَيّا،طال نومُكَ وانقَضى/عن مُقلَتَيكَ رؤى الشِّتاءِ الحالمِ. (العيسى، ٢٠٠٩م: ٣٢)

إن هذه الأبيات هى الأبيات الوحيدة التى يذكر فيها الشاعر مفردة "الشتاء"، ثم إن ذكره هذه المفردة أو الحديث عن الشتاء لم يكن مستقلا، بل جاء ذكرها مقابلة لفصل الربيع؛ كأنه يريد القول بأن الشتاء ليس له هوية أمام الربيع لذا لابد له من الرحيل لكى تخضر الأرض ثانيةً وتحيا الأرض من جديد. إن الشاعر هنا يضفى على الشتاء دلالة رمزية، ليصبح الشتاء رمزاً للخمول والكسل والجمود. كما أنه رمز لحالة العجز والهوان التى تتسم بهما الشعوب العربية أمام الأعداء؛ تلك الظروف السيئة والقاسية التى ستزول عاجلاً أم آجلا بواسطة الأطفال بوصفهم ذُخر الأمة العربية وقادة المستقبل، وبذلك يدخل العالم العربى بعد شتاء الهزيمة فى ربيع الحرية.

النتائج

لقد أوصلنا البحث إلى عدة نتائج، نسجل أهمها فيما يلى:

سليمان العيسى – شاعر شعر الأطفال ورائده فى العصر المعاصر–، يلجأ إلى توظيف عناصر الطبيعة فى شعره لكى تتعانق المفردات التى تختص بالطبيعة مع المفردات التى تنمّ عن وجدان الشاعر وأحاسيسه ومشاعره، كأنه يلوذ إلى الطبيعة وينصهر فيها انصهارا كاملا لتهدأ روحه إذ نستطيع أن نعده من قبيل شعراء الشعر الوجدانى أو الشعراء الرومانسيين الذين ينظرون إلى الطبيعة نظرة أكثر عمقا ويتعاملون معها بشكل مختلف عن الآخرين.

والرموز الطبيعية عند سليمان العيسى، تبتعد عن دلالاتها المعجمية لتحمل دلالات أخرى جديدة متناسقة مع حالات الشاعر النفسية وأفكاره النضالية ومواكبة فضاءه

الروحى والذهنى. وهو يخلق الدلالات الرمزية الجديدة لبعض الظواهر الطبيعية يجعلها رمزا مناسبا للأطفال موائما مع حالاتهم النفسية وحاجاتهم الروحية.

إن الرموز الطبيعية عند الشاعر تتمثّل فى الكفاح فى الساحة الأيديولوجية والثقافية والاجتماعية ما جعل أشعاره تساعد على النمو والرقى الفكرى والنفسى والأخلاقى لدى الأطفال. فينظر إلى الحيوانات المألوفة لدى الأطفال كالهرّ والحمار والثعلب والسلحفاة نظرة مختلفة عن النظرة والاعتقاد السائدين، هادفا أن يعلّم الأطفال الابتعاد عن تكوين أحكام مسبقة على الآخرين لا تقبل النقاش ولا تغيرها الحقائق الدامغة. إنه أراد أن يعلم الأطفال بأن تكون لهم نظرة مغايرة ومتجددة للأشياء والظواهر. كما أراد أن ينقل رسالة مفادها أن لكافة شرائح المجتمع حق حرية الرأى والتعبير، لذا فلابد من أن نعير اهتماما لجميع أفراد المجتمع.

ومظاهر الطبيعة فى فكرة سليمان العيسى من الشمس والريح والربيع و... كلها رموز إيجابية تقود مخاطبيه من الأطفال نحو النضال والمقاومة لأجل الوصول إلى الهوية العربية ومجدها القديم وتنبت فى نفوسهم شجرة الأمل والرجاء لمستقبل أزهى. فالشمس رمز الحرية والخلاص بعد تحمل المكابد كما لا تشرق الشمس إلا بعد الظلمة. والريح بهبوبها وجريانها على السهول رمز الحركة وعدم الثبات فى طريق العودة الى الوطن وأرض الآباء والأجداد والربيع بخضرته يدل على أن شتاء الهزيمة سيزول قريبا وسيحل محله الانتصار. وكذلك الحجر كرمز إيجابى تتمحور إحالاته الجمالية حول المقاومة والخصب والانبعاث فضلا عن الإعمار والبناء فى المجتمع.

تشكل ثلاثية الهوية والتراث والوطن منظومة سليمان العيسى الفكرية. فالتراث بما فيه من اللغة والتقاليد وتاريخ الماضى (الشخصيات والحوادث التاريخية الكبيرة) ركيزة أساسية للهوية الثقافية فى شعر العيسى، لذلك يؤكد عليه من خلال الإشارة إلى الرموز التراثية بشكل مكثف وكذلك الانتماء إلى الأرض والوطن والاعتزاز بالانضمام إليه والتضحية من أجله يؤدى إلى تكوين الهوية الوطنية أو بشكل أوسع الهوية القومية لدى الأفراد. فعلى ذلك تمثل الشجرة فى شعره رمزا للأرض والتشبث بالجذور الموغلة فى تراب الوطن. والغابة كرمز مكانى كبير ترمز إلى الوطن العربى الكبير. فمن يتجه نحو

قمة الجبل أى الحرية والإستقلال، مع كل العوائق والصعوبات، يدرک الهوية الحقيقية أو يدرک الأنا القومية مقابل الآخر الأجنبى. فمن لا أرض له ولا تراث، لا هوية له. فعلى ذلک العصفور کرمز للطفل العربى خاصة الطفل الفلسطينى المتشرد يبحث عن هويته الضائعة أو المسلوبة فى کل مکان ويريد استعادته من عدو صهيونى غاصب يتمثل فى رمز الذئب بمثابة آخر أجنبى يجب أن يحذف من ساحة حياة الطفل.

المصادر والمراجع

ابن منظور، محمد بن مکرم. (١٤١٤ق). لسان العرب. ط٣. بيروت: دار صادر.

أبيض، ملکه. (٢٠٠٩م). سليمان العيسى فى لمحات. ط١ دمشق: الهيئة العامة السورية للکتاب.

باوان بورى، مسعود ونرگس لرستانى وفاطمه اسدى وعليرضا حسينى. (١٣٩٣ش). «نگاهى به ادبيات کودک در سرزمينهاى عربى، مطالعه مورد پژوهانه: سليمان العيسى». همايش ملى رويکرهاى پژوهشى و کاربردى در علوم انسانى. مؤسسه آموزشى پژوهشى هزاره سوم.

بلالى، رقيه. (١٣٧٩ش). «بخش گفتگو، گفتگو با جعفر قربانى». کتاب ماه کودک ونوجوان. السنة الثالثة. الرقم ١١. صص١٠-١٧

بلاوى، رسول وحسين مهتدى. (١٤٣٦ق). «الرموز الطبيعية ودلالتها فى شعر يحيى السماوى». مجلة اللغة العربية و آدابها. السنة١١. العدد الثانى. صص ١٨٥-٢٠٩

بن عمر، فوزية. (٢٠١٤-٢٠١٥م). مفردات قصص الأطفال فى الجزائر ومدى توافقها مع معجم الطفل. رسالة فى ماجستر کلية الآداب واللغات. الجزائر: جامعة حمة لخضر الوادى.

چدويک، چارلز. (١٣٧٨ش). سمبوليزم. مترجم: مهدى سحابى. طهران: نشر مرکز.

حاجى زاده، مهين ومايه گوزل بهمن ومحدثه ابهن. (١٣٩٤ش). «بررسى وتحليل أشعار تعليمى سليمان العيسى در حوزه ادبيات کودک». مجله نقد ادب عربى. الرقم١١. صص٦٧-٩٢

الحديدى، على. (١٩٨٨م). فى أدب الأطفال. ط٤. القاهرة: مکتبة الأنجو المصرية.

خوانى، زهرا. (٢٠٠٨م). أدب الأطفال فى الجزائر، دراسة لأشکاله وأنماطه بين الفصحى والعامية (١٩٩٠-٢٠٠٠). أطروحة دکتوراه فى فرع الأدب الشعبى فى کلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. تلمسان: جامعة ابى بکر بلقايد.

دشتيان، رسول. (٢٠١٢م). شرح و بررسى اشعار سليمان العيسى با تکيه بر مضمون و موسيقى، رسالة ماجستر. فرع اللغة العربية. طهران: جامعة طهران.

رضائى، ابوالفضل وجواهر بوعذار. (١٣٩١ش). «أهمية الدواوين الشعرية للأطفال، سليمان العيسى نموذجا». المؤتمر الدولى الثانى للغة العربية.

رمانی، إبراهيم. (لاتا). الغموض فی الشعر العربی الحديث. ط١. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعی.
سرخی زاده، زهره. (١٣٩٥ش). بررسی وتحليل صور خيال در اشعار كودكانه محمد كيانوش وسليمان العيسی. رسالة ماجستر. إيران: جامعة بيام نور فی مدينة تفت.
سهرابی، فرخنده ويحيی معروف. (١٣٩٣ش). «بررسی نماد خورشيد در شعر امل دنقل و شفيعی كدكنی». كاوش نامه ادبيات تطبيقی جامعة رازی. السنة الرابعة. العدد ١٣. صص١-٢٤
شاملی، نصرالله وحسن علی ياری وساجد زارع نجف آبادی. (١٣٩٧ش). «نگاهی به نمادهای حيوانی در ادبيات فارسی». www.chistiha.com
شواليه، ژان وآلن گربران. (١٣٧٧ش). فرهنگ نمادها. ترجمة وتحقيق: سودابه فضايلی. ط١. طهران: منشورات جيحون.
نصاری، جمال وحامد صدقی. (٢٠١٣م). «الطبيعة الرمزية فی شعر بدر شاكر السياب و نيما يوشيج». مجلة دراسات فی اللغة العربية وآدابها. السنة الرابعة. العدد الخامس عشر. صص١١٩-١٤٢
عبدالله زاده، فؤاد وعلی اصغر حبيبی وحيدر عبدالله زاده. (١٣٩٤ش). مضامين طبيعت گرايانه در "ديوان الأطفال" سليمان العيسی. بوشهر: همايش جستارهای ادبی، زبان وارتباطات فرهنگی.
عبشی، نزار. (٢٠٠٥م). التناص فی شعر سليمان العيسی. رسالة ماجستر. كلية الآداب و العلوم الإنسانية قسم اللغة العربية. سوريا: جامعة البعث.
عكاشة، شايف. (١٩٩٤م). نظرية الأدب فی النقد التأثری العربی المعاصر. ط١. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
العيسی، سليمان. (٢٠٠٩م). أراجيح تغنی للأطفال. ط١. دبی: دبی الثقافية.
ـــــــــــــ (١٩٩٩م). ديوان الأطفال. ط١. دمشق: دارالفكر.
ـــــــــــــ (لاتا). الأعمال الأخيرة. لامک: لانا.
العيسی، سليمان و ملكه أبيض. (٢٠١٣م). رحلة كفاح. ط١. عربستان: دار الحافظ.
فتحی دهكردی، صادق ونادر محمدی. (٢٠١٧م). الرمز الطبيعی ودلالته فی شعر سليمان العيسی (ديوان أنا والقدس). مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية. جامعة بابل. العدد٣٥. صص٢٩٤-٣٠٦.
فيروز آبادی، محمد بن يعقوب. (١٤٢٥ق). القاموس المحيط. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.
قرآنيا، محمد. (٢٠٠٣م). قصائد الأطفال فی سوريه. ط١. دمشق: إتحاد الكتاب العربی.
كندی، محمدعلی. (٢٠٠٣م). الرمز والقناع فی الشعر العربی الحديث. ط١. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.
نجيب، أحمد. (١٩٩١م). أدب الأطفال، علم وفن، دراسات فی أدب الطفولة. ط٢. القاهره: دار الفكر العربی.

نصرتی، معصومه. (١٣٨٨ش). بررسی نمادها در شعر کودک و نوجوان دفاع مقدس در دو دهه ٦٠ و ٧٠. رسالة ماجستير. كلية الآداب واللغات الخارجية والتاريخ. طهران: جامعة الزهراء.
هادی شکر، شاکر. (١٩٨٥م). الحيوان فی الأدب العربی. ط١. بيروت: عالم الكتب.
هجيرة، حمانی. (٢٠١٥م). دلالة الرمز فی الديوان الشعری "اللؤلؤة" لعثمان وصيف. رسالة ماجستر، قسم الأدب واللغة العربية. الجزائر: جامعة محمد خضير.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی